تعظيم الخيل والأسلحة

يقول لافيس : « منذ القرن الحادى عشر ، لا نكاد نرى المحاربين يقاتلون ، إلا وهم على صهوات الجياد ، ولذلك أطلق على المقاتل فى العصور الوسطى اسم « الفارس » ؛ فهو فى فرنسا يدعى Chevalier ، وفى جنوبيها Caver ، وفى إسبانيا Caballero ، وفى ألمانيا Ritter ؛ وأصبحت كلمة « العسكرى » فى النصوص اللاتينية القديمة Miles مرادفة لكلمة « فارس » . »[1] وكذلك كان الأمر فى اللغة العربية ، إذ يدعى المقاتل فارسا ، نسبة إلى الفرس . ويسجل هذا الأصل المشترك للكلمة فى عدة لغات ، ما يربط بين الفارس والفرس من صلات لا تدعنا نتصور الفارس بلا فرس ، بل ويخيل لنا الحصان قاعدة حية لتمثال الفارس . وإذا كان جمال النحت يتجلى فى أن يصنع الفنان قاعدة التمثال من مادة التمثال نفسها — رخاما كانت أو « برونزا » أو عاجا أو جرانيت — فإن فن الفروسية كذلك يقتضى أن تجمع بين الفرس وفارسه صلة وثيقة ، وأن يكون بينهما حظ مشترك متكافئ من نفس الجمال البدنى الموروث عن أصل عريق ، ونفس الفضائل الأخلاقية كالذكاء والشجاعة والكرم . فما الذى أوحى يا ترى للعرب هذا الفن الذى أبدعوه فى صورة وافية موفقة ،

---

(١) لافيس ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

ما زالوا يبذلون الجهد لإبقائها وإحيائها ؟ وهل يمكن أن يكون سوى طبيعة بيئتهم ، وأسلوبهم فى العيش وروحهم الأصيلة ؟

تخيلوا مساحات شاسعة من الرمال ، تناءت فيها العيون والمراعى ومضارب الخيام . هناك لا أنهار ولا سفن ، ولا سبيل إلى التواصل السريع سوى الحصان . وتخيلوا من ناحية أخرى حياة العرب المضطربة بالأحداث ، وقتالهم الذى لا ينقطع بين هجوم ودفاع ، وتنقلهم الفجائى ، ورحيلهم المتلاحق لانتجاع الكلأ . فعلى سرعة الطرد أو السلب تتوقف سرعة العودة بالصيد أو الغنيمة ، وعلى جلد الفرس يتوقف مدى الغارة ؛ وإن براعة الفارس من براعة الفرس ، فالسابق إلى تسديد الضربة القاتلة هو السابق أيضاً إلى الفرار من المعمعة ، وعلى قدر خفة الجواد يقصر أو يطول البعد بين الفارس ومحبوبته . . . بفضل الجواد إذن يستطيع العربى أن ينقذ ما يملك ، وأن ينطلق متعقبا عدوه ، وأن يذود عن أهله وعن حريته هكذا كان الحصان مصدر منافع ومغانم ، فاستأثر منذ أقدم العهود بحب العرب ، لما يؤدى لهم من خدمات جليلة يعجز دون أدائها سواه . ولذلك عنوا كل العناية بتربية هذا الحيوان وتهذيبه ، حتى يحصلوا على أقصى ما يمكن من مزاياه . وهكذا أصبح أجمل الجياد وأسرعها وأقواها ، موضع التهافت ، ومصدر الثروة الطائلة التى تعود بالمجد على صاحبها المجدود .

على أن مالك الجواد لم يكن يعتز به لأنه كان مجلبة للآلاء والمنافع فحسب ، بل ولأنه كان نعم الرفيق . فلقد كان المقاتل يمضى وحده ،

لا يصحبه إلا جواده ، فيمعن فى السير التماسا للمغامرة ، وقد تطول جولاته خلال مفاوز جزيرة العرب ، حيث تعصف دائما ريح الشحناء ، ويزمجر شيطان الثأر والبغضاء ، وترعد بروق الغدر وتهدر الدماء . . . فلا يجد الرجل إلا جواده صديقاً أمينا . أو ما كانا يتقاسمان صروف الحياة ؟ أو ما كانا يتعرضان لنفس المخاطر ؟ أو ما كانا يتذوقان نفس النشوة فى غمار المعارك ؟ أو لم تكن النصرة والعزة ثمرة لتعاونهما الوثيق ، وشجاعتهما المتكافئة ، وجلدهما وذكائهما وبراعتهما ؟ فإذا خرجا لموعد غرام انطلق الجواد يسابق أشواق سيده ، ومن يدريه ، فلعله واجد هنالك فى انتظاره فرسا جميلة كريمة جديرة به ، قرب خباء تلك الحسناء المشرقة .

مهفهفة بيضاءُ غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل[1]

وإذا خرجا للمراقبة استطاع الرجل عندما يجن الليل أن يهبط إلى السهل ، بينما يظل جواده ساهرا يحرس المكان كما يقول لبيد :

فعلوت مرتقبا[2] على ذى هبوة[3] حرج[4] إلى أعلامهن[5] قتامها[6]

---

(١) معلقة امرئ القيس المهفهفة : اللطيفة الخصر . وغير مفاضة : ضامرة البطن . ترائبها . . . الخ . أى صدرها مشرق متلألئ .

(٢) المكان المرتفع الذى يقوم عليه الرقيب .

(٣) غبرة .

(٤) ضيق جداً .

(٥) الجبال والرايات .

(٦) الغبار « أى راقبت الأعداء من أعلى جبل قريب منهم » .

حتى إذا ألقت يداً فى كافر[1] وأجن عورات الثغور ظلامها
أسهلت[2] وانتصبت كجذع منيفة[3] جرداء يحصر دونها جرامها[4]

وإذا اقتضى اللقاء هجوما ودفاعا فإن الجواد :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل[5]

ويقصد شعراء المديح الخليفة أو الأمير الكريم ، التماساً لجائزة أو هبة ، فيدورون فى أسلوب يتراوح بين الواقع والمجاز حول هذا الإطراء :

عــلام تلفتين وأنت تحــتى وخــير النــاس كلهم أمامى
متى تأتى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى[6]

وهكذا نستطيع أن ندرك فى يسر ، كيف نشأ بين الفارس والفرس ، شعور متبادل من الشكر والاحترام والاعتزاز تلا ما كان يربطهما أولا

---

(١) الليل (أى حتى إذا غربت الشمس وأظلم الليل) .
(٢) أسهل : أتى السهل من الأرض .
(٣) العالية .
(٤) جمع « جارم » وهو الذى يقطع حمله .
(أى لما غربت الشمس نزلت إلى مكان سهل وانتصبت الفرس أى رافعة عنقها كجذع نخلة طويلة يضيق صدور الذين يريدون قطع حملها لعجزهم عن ارتقائها) .
(٥) معلقة امرئ القيس .
(٦) الانساع : جمع نسع وهو سير يشد به الرحل . الدبر : جمع دبرة وهى قرحة الدابة .

من شعور الحب والزمالة ؛ لقد عرف العربى للدابة فضل وفائها وعظيم جدواها ، كما عرفت الدابة للرجل فضل عنايته بها وعلمه بالفروسية وذيوع صيته .

وإننا لنجد فضلا عن ذلك فى جميع القصائد التقليدية — سواء كان موضوعها المدح أو الفخر أو الحكمة — جزءا مخصصا لوصف الجواد أو الناقة ، قد يكون أجمل أجزاء القصيدة . وعلى هذا فنحن لا نغالى حين نقول إن الفارس العربى وفرسه كانا يتشاطران الحياة ويتلازمان ، مما دعا إلى تعريف كل منهما باسم الآخر : فلقد كان يقال « فرس عمرو » كما كان يقال « فارس السميدع » و « فارس أبجر » أو « فارس بهرام » . وكذلك كان مما يفخر به المرءُ أن يحوز لقب « فارس الفوارس » أو « فحل الفحول » أو أن يقال عنه : صاحب الخيل ، مثل « طفيل الخيل » أو « فريد الخيل » . . .

لقد تضافرت كل العوامل إذن على أن تنمى لدى عرب الجاهلية حب الخيل واحترامها ، ثم جاء الإسلام فأضاف إلى هذه الحوافز — حوافز الإثراء واللذة ، والفن والفخر — حافزا جديدا . فلقد كان محمد سياسيا بارعا أريبا ، أدرك لزوم الحصان للمسلمين حتى ينشروا الشرع الحنيف على الملأ . وفى ذلك الزمن ، لم يكن المشاة هم سادة المعارك ، ولم يكن البارود قد أحدث دويه ، بل كان الحصان هو الذى يحسم القتال وهو الذى يحقق هجرات الشعوب ؛ لذا قرر الرسول وقف هذا الحيوان

العجيب على نفع المسلمين فقط ، فخلع عليه طابعا مقدسا ، وأحاط مولده بالرمزية والإعجاز ، وأثنى فيه على فضائل خاصة وفوائد جمة ، وجعله خليقة مصطفاة أعدت للحرب والمجد ، وفرض على المؤمنين واجب تربيته وتدريبه فى سبيل الله . وإن فى هذه الوصايا الدينية ما يشرح ضروب الحب والعناية التى ما زال العرب حتى اليوم — ولو كانوا من أهل المدن — يحيطون بها خيلهم .